

دور النسقية في بناء مصطلحية البلاغة العربية

*د. الحسن بواجلابن

جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

البريد الإلكتروني: elh_bouijelabn@yahoo.fr



اهتم البحث في التناص لدى قداماء البلاغيين العرب بأصل المعاني والصور الشعرية. واهتنت بإشكالية إسهام النسقية في تجاوز بليلة مصطلحات البيت البلاغي. فعالجت مفهوم النسق، والنسقية، ومستلزماتها، وحال مصطلحية البلاغة العربية، ثم قدمت تطبيقا على مصطلح التناص.

وضعت في البداية الأنساق المصطلحية ليتم الحوار بين الموروث البلاغي والمتعاليات النصية لأجل تصنيف مفاهيم التناص في قسمين، هما: التناص الظاهر والتناص الخفي. وأوضحت بليلة مصطلحات البيت البلاغي، ولأجل الإسهام في ترتيبه ترتيبا نسقيا، قدمت ترتيبا لمحسنات التناص، ونماذج لترتيب محسنات البلاغة مثل الاستعارة التهكمية، والجناس. إن ترتيب مصطلحات التناص ترتيبا نسقيا، سيفسح المجال أمام الشعرية العربية، والتحليل الحوارية للشعر والسرد. الكلمات - المفاتيح: نسق، نسقية، مصطلحية، البلاغة العربية، التناص.

Abstract:

In this paper, I was interested in the intertextuality of the ancient rhetoric Arabs about the origin of meanings and poetic images. I discussed the problematic of the contribution of systematization to go beyond the confusion of rhetorical terminology

I dealt with the concepts of system and systematization, their requirements, and the state of the terminology of Arabic rhetoric, and then I presented an application of the intertextuality.

* المؤلف المرسل: د. الحسن بواجلابن elh_bouijelabn@yahoo.fr

First, I provided the terminological systems in order to build a dialogue between the terminology of the ancient rhetorical and transtextual transcripts.

The aim was to categorize the concepts of intertextuality into two parts: explicit and implicit intertextuality. I clarified the confusion of rhetorical terminology, and in order to contribute to its arrangement in a coordinated order, I also presented a classification of the figures of intertextuality, and models for the arrangement of the rhetoric's classification figures such as satirical metaphor and anagrams.

The arrangement of the term of the intertextuality in a coordinated order will give way to Arabic poetry, and the intertextuality analysis of poetry and narrative.

Keywords: system, systematization, Arabic rhetoric, terminology, intertextuality.

تقديم:

أُثِّرتُ نظرية الأنساق دراسة الأدب ، وحفل بمعالجة الظاهرة الأدبية من زاوية نسقية " كلين كلاوديو " Guillen Claudio " بكتابه (الأدب باعتباره نسقا، محاولات بشأن نظرية التاريخ الأدبي)¹، كما أغنت دراسة علوم اللغة، والعروض، والتلقي، وغير ذلك. وتستحضر النسقية خصائص النسق ووظائفه، مع تركيز على الوظائف التي تنجزها العناصر تبعا لموقعها داخل النظام. والبنويوية " تنطلق من ظاهر الوقائع إلى اكتشاف ماهية البنية المتحدرة في الفكر الإنساني والمحددة بيولوجيا، هذه البنية التي لها عناصر متفاعلة متنافية، وتَضْمُنِيَّة². لا يكتفي البنيوي برصد الظواهر ووصفها، وإنما يبحث عن شكل تنتظم فيه تلك الأشكال.

¹ - Guillen Claudio: literature as system. Essay towards the theory of literary history. Princet on university press. 1971.

² - محمد مفتاح: دينامية النص، ص: 34.

وسأهتمّ في هذه الدراسة بمبحث من مباحث البلاغة العربية، وهو التناص الشعري وأعالج النقط الآتية:

. النسق وحياة المصطلحات.

. مستلزمات النسقية وحال البلاغة العربية.

. تطبيق على مصطلح التناص الأدبي.

1- النسق وحياة المصطلحات:

يتراوح المصطلح بين وظائف الوصف، والنقل، والتأسيس؛ فهو يصف علما قديما، أو ينقل علما قائما، أو يؤسس علما قادمًا.

وتبدو المفاهيم كالكائنات الحية؛ لها إطارها الذي تتحرك فيه وتشتغل ضمنه، وكل مفهوم تُحَفَّ به مجموعة من المفاهيم تجمعها به حقوق الجوار أو القرابة. ويجب أخذ تلك المتعلقات من المفاهيم بعين الاعتبار في أثناء الدراسة المصطلحية. وكلما غادر أي مصطلح نسقه الأصلي تُنزع منه هويته ووظيفته، وترفع عنه كل الترابطات والعلاقات التي كانت تصله بمجموع المفاهيم الحاقّة به سابقا. فيُجرّد من كل أسباب الاستمرارية والقوة التي كان يُتمتع بها النسق، فيصير حاله كشأن رعا ع الظواهر وعامتها.

تظهر المفاهيم وكأنها كائنات حية؛ لأنها تتأجر أيضا من مكان إلى آخر، أي من النسق في الأصل إلى النسق في الحال. ويلزم حينئذ أن يخضع المصطلح المهاجر

لخصائص النسق المستقبلي وشروط الحصول على تأشيرة التّبين " La Structuration " .

وَألا يُكَدَّر صفو عناصره البنائية، وألا يعرقل سير وظائفها المعتادة. ويجب على الدارس ألا يُرغم المصطلحات على اغتصاب مواقع ليست لها، وأن يضمّ كل مصطلح إلى من على لِقِّه وعلى شاكلته. ومن أمثلة المصطلحات المهاجرة، مفهوم الوحدة العضوية التي وفدت من مجال البيولوجيا إلى مجال نقد الشعر، ومفهوم الاسترجاع " Flash back " الذي جاء من مجال النقد

السينمائي ليشغل في دائرة نقد السرد بالإضافة إلى توظيفه في نقد الأعمال السينمائية. وغالبا ما تتعرض المصطلحات المشيدة للنسق لاحتلال من قِبَل الحقول المجاورة، فكلما تقوى مجال، أنتج مفاهيمه وجعلها تتبلور، فيعمد إلى فرض جهازه المفهومي ونسقه المصطلحي. لذا يلزم الدارس تحصيل تلك المصطلحات بالبحث عما من شأنه أن يجعلها جامعة لدلالات النسق، وموانعة من دخول مصطلحات من خارج النسق. فالنسق يشبه إلى حد ما القلعة التي يتحصن فيها كل من بداخلها.

وعند الاضطرار إلى استقدام مصطلح ما، تجب المحافظة على تماسك شبكة المفاهيم؛ بحيث لا تؤدي ضيافة المصطلح إلى محنة الأنساق الداخلية، كأن يغير سمتها وملاحمها، أو يعوق سيرها العادي. وفي هذه الحالة يكون النسق أمام أحد الخيارين:

- إما إبعاد المصطلح عن النسق.

- أو إبقاء الحال على ما هي عليه؛ أي كتمان النسق ذلك المصطلح كما يُكتم الداء الدّخيل.

2-مستلزمات النسقية وحال البلاغة العربية:

تحتل المفاهيم بمرتبة خاصة داخل النسق، يحدّد مكانة كل مفهوم الموقع الذي تتواجد ضمنه في النسق، والمعنى الذي تؤدّيه. وعادة ما تفرض العلوم التي تتصدّر البناء الثقافي للمجتمعات مفاهيمها الخاصة وخصائص نسقها على العلوم المجاورة. وبالنسبة لبلاغتنا، قال الباحث محمد العمري: " لقد أنجزت بلاغة الرّصد العربية القسم الأول من البرنامج البنيوي الظاهراتي القسم الذي يمكن إدخاله في عملية الوصف الضرورية لكل علم، وبقي على البنيوية أن تُنظّم هذا السجل الحافل بالصور، وتكتشف قوانينه الفاعلة في السكون والدينامية " ¹. ويرى " جون كوهن " أن البلاغة القديمة قد بُنيت بمنظور تصنيفي خالص. لقد وقفت محاولتها عند وضع المعالم، وتسمية وترتيب الأصناف

¹ -تحليل الخطاب الشعري: 20.

المختلفة من الانزياحات. كانت تلك المهمة مملّة ولكنها ضرورية. فمن هنا ابتدأت العلوم جميعا. لكن البلاغة وقفت عند هذه الخطوة فلم تبحث عن البنية المشتركة بين الصور المختلفة، وهذا بالتحديد هو هدف تحليلنا¹.

تقتضي النسقية إذن البحث عن نسق شمولي يستوعب كل الصور البلاغية؛ ذلك لأن الوصف والتصنيف لا يكفيان على الرغم من أهميتهما. فبعد رصد الوقائع كمقولات، تأتي المرحلة الأهم وهي وضع الأسماء بدقة وبناء الأنساق. " وفي حوار بين الأنساق الطامحة إلى الانغلاق والتناظر والوقائع المتجسدة التي لا يتم إدراك كل العلاقات الخفية التي تربط بينها تُثار الأسئلة تلو الأسئلة .. إن ضبط الأسماء والأنساق، فيما أنجز، يفتح مجالات أخرى للبحث؛ فعن طريقه نتحرر من الحضور العيني للوقائع ونكتشف الخانات التي تتطلب مزيدا من التنقيب. وعموما فكلما أمكن تحويل المصلحات إلى شبكة متواصلة الحلقات في علاقات عمودية وأفقية كلما أمكن الانتقال إلى مستوى أعلى من التجريب².

نضع في البداية الأنساق المصطلحية لنتّم الحوار بين الحصييلة البلاغية العربية القديمة والدرس البلاغي الغربي الحديث، مع استحضار لأسئلة العصر. ويلزم إقامة تصنيف يوضح الموقع الذي يحتله المفهوم في مجموع النسق، و ما يُخفُّ به من مفاهيم ترتبط به، على اختلاف في قيمتها وأهميتها انطلاقا من الموقع الذي تسيطر عليه. فتقدم تعريفات جديدة للمصطلح القديم؛ حيث تتمّ الزيادة في مضمارها، فتتوسع دلالة المصطلح، أو ينقص، ويُستبدل مصطلح بآخر لأنه أدل أو أدق، أو لأنه جامع مانع. وقد لا يجدي الموجود من الأنساق، فيبحث الدارس عن المفقود منها. على ألا يُجثّت المصطلح من سياقه ونسقه. ثم يتمّ إنشاء شبكة من المفاهيم تخضع لتراتبية محددة.

3- تطبيق على مصطلح التناص الأدبي:

¹ -جان كوهن: بنية اللغة الشعرية، ص: 47.

² -مجلة فكر ونقد: محمد العمري (مصطلح الدرس الأدبي والنسق المعربي)، ص: 87. السنة 2. العدد 20. 1999.

دور النسقية في بناء مصطلحية البلاغة العربية

اتَّخذت دراسة مفهوم التناص في ثقافتنا المعاصرة مسارين متباينين أشير إليهما كما يأتي:

- الاكتفاء بدراسة المصطلح وتطبيقاته بشكل حديث.

- البحث عن أوجه التناص في البلاغة العربية.

ولم يتم استحضار أشكال التناص الواردة في الموروث البلاغي العربي في ضوء التصور الغربي الحديث لمفهوم التناص لإقامة حوار بناء بينهما. فالنسقية تقتضي قراءة تُجري حواراً منظماً بين المنجز البلاغي العربي والجهود الغربية الحديثة في الموضوع نفسه.

وبناء عليه، سألجت في المصنّفات التراثية عن المفاهيم التي تمثل أسرة التناص¹، ثم أقف على إنجازات الشعرية الغربية الحديثة في ذلك الموضوع، وأعرض المفاهيم التراثية للتناص على حصيلة الشعرية الغربية لإنشاء حوار جدلي بينهما، و لتظهر التقاطعات، والتباينات، ويتّضح ما يحتاج من المصطلحات إلى إعادة الترتيب.

3-1. مفاهيم التناص في التراث:

بالبحث الاستقرائي عن المفاهيم الدالة عن التناص الشعري في كتب التراث البلاغي والنقدي، تظهر عدة مصطلحات لعل أقدمها مصطلح السرقات الشعرية. وقد بدّد النقد العربي القلم زمنًا طويلاً في موضوعها بلا طائل²؛ حيث اهتم النقاد بذلك لتبرئة شاعر أو اتّهامه. وقد أحسن عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) لما جعل الصورة هي أساس التفاضل بين المتناص والمتناص معه³.

¹ - أنجزتُ قسماً مهماً من ذلك العمل؛ حيث قدمتُ دراسة في الموضوع تحت عنوان: "التناص من منظور حازم القرطاجني" نشرته مشكورة مجلة (جذور)، السنة السادسة، العدد: 12، مارس 2003.

² - يكفي أن أشير إلى دافع تأليف النامي رسالة في عيوب المتنبي؛ حيث قال إحسان عباس في ذلك: "قبل أن يفد المتنبي على بلاط سيف الدولة كان أبو العباس الدارمي المعروف بالنامي هو شاعره المقدم، فلما استأثر المتنبي بالمقام الأول اغتاظ النامي (..)" ولذا فليس بغريب أن يكتب في المتنبي رسالة يتعقّب فيها أخطائه "تاريخ النقد العربي عند العرب: 270.

³ - يُنظر دلائل الإعجاز: 388.

وفصل هؤلاء النقاد القول فيها، وذكروا أصنافها كالاصطراف، والاجتلاب، والانتحال، والاهتدام، والإغارة، والمرافدة، والاستلحاق¹. وهو ما اختزله حازم القرطاجني (ت: 684 هـ) في مفهوم واحد هو السرقة. وأورد هذا المفهوم في معرض معالجته لسبل المعرفة باستشارة المعاني إلى جانب مفاهيم أخرى مرتبطة دلاليا بالتناص، وهي:

الاستشارة، والاقتباس، والتضمن، والترتيب، والاشتراك، والاستحقاق، والانحطاط، والقصة.

*استشارة المعاني: أي طلب إثارتها من مكانها، "واستنباطها من معادنها، واستنباط تركيباتها"².

*الاقتباس: هو "أن تُدرج كلمة من القرآن، أو آية منه في الكلام تزيينا لنظامه، وتفخيما لشأنه"³. والاقتباس هو استشارة المعاني بالنسبة لحازم القرطاجني؛ إذ قال: "ولاقتباس المعاني واستشارتها طريقان: أحدهما تقتبس منه لمجرد الخيال وبحث الفكر، والثاني تقتبس منه بسبب زائد على الخيال والفكر"⁴.

*التضمن: وهو "أن يكون (أي: معنى الشاعر) مضمنا معنى علميا أو خبرا تاريخيا أو محالا به على ذلك ومشارا به إليه فيكون فهم المعنى متوقفا على العلم بذلك المضمّن العلمي أو الخبري؛ أو يكون المعنى مضمّنًا إشارة إلى مثل أو بيت"⁵. والتضمن هو الاستشهاد عموما.

*الترتيب: حيث "يكون المعنى مرتبًا على معنى آخر لا يمكن فهمه وتصوره إلا به"⁶. فالترتيب إذن هو أن يتوقّف معنى شعري على معنى آخر، فيتأسس عليه.

*السرقة: وهي النقل الحرفي لمعنى شعري نادر من غير زيادة ومن غير إخفاء¹.

¹ - ينظر ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج 2 / من 280 إلى 294.

² -حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 36.

³ -فخر الدين الرازي: تحاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص: 288.

⁴ -منهاج البلغاء: 38.

⁵ -المنهاج: 173. وينظر أبو القاسم السجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص: 211.

⁶ -منهاج البلغاء: 177 و 178.

الاشترك: هو " ما يتداوله الناس من تشبيه الشجاع بالأسد (..) فإذا تساوى تأليفاً الشعارين في ذلك فإنه يسمى الاشتراك " ² .

*الاستحقاق: وفي حالة تساوي الشعارين في ما يتداوله الناس، " فإن فضلت فيه عبارة المتأخر عبارة المتقدم فذلك الاستحقاق " ³ .

*الانحطاط: هو التقصير؛ إذ يقصّر الشاعر المتأخر عن المتقدم ⁴ . فالانحطاط هو نقيض الاستحقاق.

*القصة: من المعاني " ما يتوقف فهمه على قصة فلا يخلو أن تكون تلك القصة مشهورة أو غير مشهورة، فإن كانت القصة مشهورة فذلك حسن، وإن لم تكن مشهورة فإن ذلك لا يستحسن " ⁵ . وبالتنقيب في مصادر البلاغة والنقد، وجدت عدة مفاهيم تنتمي إلى أسرة التناص، وهي:

*المعارضة: وهي اتفاق قصيدتين في الوزن والقافية والمعنى ⁶ .

*النقيضة: وهي " أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدته هاجياً، أو مفتخراً ملتزماً البحر والقافية والروي، فيعمد الآخر إلى الردّ عليه هاجياً، أو مفتخراً ملتزماً البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول " ⁷ . ويتداخل مفهوم النقيضة بمفهوم المعارضة، وبالرغم من ذلك يمكن التمييز بين المفهومين من خلال توخّي النقيضة الإقناع بوساطة الحجاج وقلب دلالات قصيدة الخصم، واقتضاء المعارضة مستوى في نهج الشاعر المعجب سبيل التقليد.

¹ - ينظر المنهاج: 195.

² -المنهاج: 192 و 193 .

³ - المنهاج: 193.

⁴ - ينظر المنهاج: 193.

⁵ -المنهاج: 188،

⁶ -ينظر الأمدي في الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري: ج 1 / 7.

⁷ -أحمد الشايب: تاريخ النقاظ في الشعر العربي، ص: 3.

*التلميح: " وهو أن يُشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر، أو شعر نادر أو قصة مشهورة، من غير أن يُذكر"¹.

*التَّقل: هو " أن يأخذ (الشاعر) معنى من نَظْمٍ فيورده في نثر، أو من نثر فيورده في نَظْمٍ، أو ينقل المعنى المستعمل في صفة خمر فيجعله في مديح، أو في مديح فينقله إلى وصف؛ إلا أنه لا يكمل لهذا إلا المبرِّز، والكامل المقدَّم"².
*حسن الاتِّباع: وهو ما كان " أحسن رصفاً مما أخذ منه"³.

*الإدماج: وهو " أن يُريَ المتكلم أنه يريد المصحَّح به من موصوفيه، وهو إنما يريد المضمَر تلطُّفاً وإدراجاً"⁴.

*التوليد: وهو " أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدِّمه، أو يزيد فيه زيادة؛ فلذلك يسمى التوليد "⁵.

*المماثلة: لا تكون المماثلة إلا في المتَّفقين، و" المماثل: المصادق "⁶.

*التورية: " التورية في أشعار العرب هي كناية: بشجرة، أو شاة، .. وهم يقولون في الكلام المنثور: جاء فلان بالشوك والشجر، إذا جاء بجيش عظيم "⁷.
يتضح أن التورية هي الرمز، لكنه من الصنف الكثير التداول.

¹ -فخر الدين الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص: 288.

² -أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص: 198، وينظر ابن طباطبا العلوي، عيار الشعر، ص: 80 و81، وابن رشيق القيرواني، العمدة، ج 2 / 290.

³ -كتاب الصناعتان: 212.

⁴ أبو القاسم السجلماسي: المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، ص: 464.

⁵ -العمدة: ج 1 / 263.

⁶ -السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ج 1 / 120.

⁷ -ابن رشيق: العمدة ج 1 / 311.

ونلاحظ أن مفهوم التلميح ومفهوم التضمنين سيّان، وبناء عليه سألحق التلميح بالتضمنين. ومادام الاقتباس هو استثارة المعاني، يمكن إلحاق الاستثارة بالاقتباس. ويمكن الاستغناء عن السرقة والانحطاط نظرا لسلبيتهما وإساءتهما إلى جودة الشعر، كما يمكن الاستغناء عن المماثلة والتورية لبساطتهما التناسية.

2-3. مفاهيم التناس في الشعرية الغربية:

أوضح "ميخائيل باختين" "Bakhtine" أن كلام المبدعين يظل مسكونا بآثار الاستعمالات السابقة، وتحدث عن التفاعل الشفهي للغة؛ مما يؤدي إلى علاقة حوارية، وهو مفهوم لقي استحسانا من قبل الباحثة الدلالية "جوليا كريستيفا"، فأدخلت إيالية التناس في مجال الإنتاجية النصية، فقدّمت عملها السيميوطيقي: (Sémiotique, sémanalyse) **recherches pour une** على مختلف العوالم. واهتمّ "مايكل ريفاتير" بالمؤولات الفردية، وهي الدلائل المزدوجة كالتورية التناسية، والعناوين المزدوجة. فالتورية التناسية "تنشأ من جذور نصيّة، فهي تُفهم أول الأمر بأنها لا نحوية فقط، إلى أن يُكتشف أن هناك نصا آخر تكون فيه الكلمة نحوية؛ وحالما يُعرّف النص الآخر يصير الدليل المزدوج دالا بسبب شكله وحده، الذي لا يُلمح إلى تلك الشفرة الأخرى سِواه"¹. والعناوين المزدوجة "تشغل دلائل مزدوجة. فهي تقدّم القصيدة التي تُتوجّها، وتحيل في الوقت نفسه إلى نصّ غيرها"² وسي تعمّق مبحث التناس مع "جيرار جنيت" "Genette"؛ إذ بلغ معه التنظير للتناس أوجه، فقد أدخل التناس ضمن المتعاليات النصية:

¹ - مايكل ريفاتير: دلالات الشعر. ترجمة ودراسة محمد معتصم، ص: 140.

² - دلالات الشعر: 164.

"**Trans textuelle**"، مما مكّنه من إعادة النظر في مفهوم التناص؛ حيث استقصى العلاقات التي يمكن أن تنتظم ضمنها النصوص في خلال تفاعلها وتجاوزها، وهي خمسة أشكال من العلاقات¹، رتبها ترتيبا تصاعديا، وهي:

الشكل الأول: التناص "**Intertextualité**" وعرفه جنيت بأنه " الوجود الفعلي لنص في آخر"²، ويتمّ بوساطة السرقة الأدبية "**Plagiat**"، والتضمين "**Citation**" ، والتلميح "**Allusion**".

الشكل الثاني: النص المؤطر "**Paratextualité**"، ويشمل كل ما يرتبط بعتبات النص من العناوين، والحواشي، والرسوم.

الشكل الثالث: ما وراء النصية "**Méta textualité**"، وهي علاقة تربط النص بنص آخر يتكلم عنه، دون أن يسميه أو ينقل عبارات منه. ويتم الربط بالتفسير والتعليق.

الشكل الرابع: معمارية النص "**Archi textualité**"، وتستند إلى الخصائص المميزة للنص كالنوع الأدبي، مما يوجه أفق انتظار القارئ.

الشكل الخامس: التّعالق النصي "**Hyper textualité**"، وتفيد هذه العلاقة ربط النص (ب) بنص آخر (أ) سابق يمثّل مرجعه. وهذا الشكل هو الذي حذا ب " جنيت" إلى تأليف كتابه (أطراس: **Palimpsestes**). وهذا القسم من التناص شمولي ويضمّ المعارضة "**Pastiche**"، والنقيضة "**Parodie**"، والتحريف "**Travestissement**" أي التأويل السيئ.

3-3. عرض المفاهيم التراثية على الشعرية الغربية:

¹ - Gérard Genette : Palimpsestes , La littérature au second degré . p : 8 - 12.

² - Ibid : 8.

لماذا هذا العرض؟ وما جدواه؟

تغيّ هذا العرض تسهيل التصنيف وتدقيقه، وإقامة حوار بناء، واستخلاص نسق تنتظم فيه كل مفاهيم التناس، ويستوعبها.

وبعرض المفاهيم التراثية على الشعيرة الغربية الحديثة، نجد تقاطعا بينهما في مصطلحات: التضمين، والسرقة، والمعارضة، والنقيضة. كما يظهر أنه من الأفيد جعل مفاهيم التناس كلها تنتظم في إطار المتعاليات النصية؛ حيث إن "جنيت" **Genette** " قد أدخل مفهوم التناس في إطار أشمل يستوعب مختلف أوجه التناس؛ إذ يجمع كل ما يجعل النص في علاقة صريحة أو ضمنية مع نصوص أخرى¹، ويفسح المجال أمام الشعيرة لمتابعة البحث في التنوع المميز لأقسام التناس. ولا أوافق "جنيت" على إدراجه المعارضة

" **Pastiche** " ضمن التعالق النصي؛ لأن المعارضة احتذاء وتقليد لنموذج فني يُكبره اللاحق. ونوافقه على وضعه النقيضة والتحريف في التعالق النصي.

وقد أتاح إدراج "جنيت" مفاهيم التناس في إطار المتعاليات النصية تصنيف بعض تلك المفاهيم ضمن نسق الاقتداء، وبعضها الآخر ضمن نسق المغايرة. وينهج المبدعون سواء في مجال التناس الشعري، أم في مجال التناس السردى إحدى السبيلين:

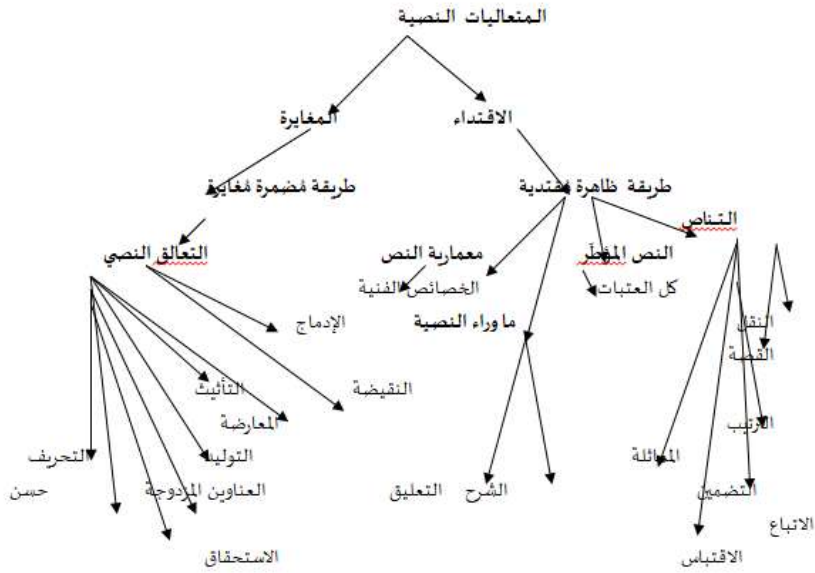
- طريقة ظاهرة صريحة مُقتدية: همّا الاحتذاء، وأخذ أقوال المتناس معه، وإشراكه في بناء النص الأدبي.

- طريقة خفية ضمنية مغايرة: يبحث أصحابها عن موقع، ويفتحون آفاقا أرحب لنصوص أخرى مُكمّلة. وهذا الصنف من التناس أكثر عمقا وخفاء يتطلب من القارئ جهدا كبيرا. وهذا جدول توضيحي يبيّن مميزات كل طريقة:

¹ - p : 7. Palimpsestes , La littérature au second degré

الطريقة الخفية المُغايِرة	الطريقة الظاهرة المُقتدِية
مواجهة النص اللاحق النص السابق	تبرير النص اللاحق النص السابق
مسألة النص اللاحق النص السابق وتجاوزه	اعتراف النص اللاحق بسلطة فنية للنص
استحضار اللاحق السابق لأجل محاورته	السابق
استشراف اللاحق آفاقاً إبداعية أفضل	استحضار اللاحق السابق لأجل وظيفة
وأنجع	أداتية
سمة الاختلاف	احتذاء اللاحق السابق وتقليده
الأخذ لفصح المجال للنصوص المكملة	سمة الحرفية
أو مبدلة	أخذ اللاحق من معاني الآخر وقوالبه
توجّه تفاعلي	لتكوين النص
مُوجّهة ومغيّرة	توجّه غمطي
إثبات الذات، والبحث عن موقع	مُقتدِية
نُهج مسلك المغايِرة	التشابه واستنساخ المنوال
الاعتماد على الذات المبدعة	نُهج مسلك التبعية
تجاوز اللاحق السابق إلى آفاق أرحب	الاتكالية
وأفيد	اعتماد اللاحق على السابق
تعالق اللاحق بالسابق فعّال.	تعالق اللاحق بالسابق ضعيف

وبناء عليه صَنَّفْتُ مفاهيم التناص الأدبي، وهذه خطاطة توضيحية:



من أجل ترتيب البيت البلاغي:

يتضح مما تقدم أن التناص يرتبط بالمعنى، وهو ما فطن إليه حازم القرطاجني؛ حيث تحدّث عن استشارة المعاني. لكن بفحص المفاهيم المنتمية إلى أسرة التناص في البلاغة العربية كالاقتباس، والتضمين، والتلميح، والتورية، نلحظ فيها مُدرجة ضمن المحسنات البديعية. إلا أن تلك المفاهيم لا علاقة لها بالجانب الصوتي. والأنسب أن تُدرج تلك المحسنات البديعية في علم البيان وليس في علم البديع؛ فإطار علم البيان هو قلعتها المناسبة لأن تلك المفاهيم التناصية تستخدم المستوى الدلالي للشعر، ولها صلة بنسيج النص من قبل المعنى.

وذلك التشويش في ترتيب الأوجه البلاغية ليس حكرًا على مفاهيم التناص؛ حيث إننا إذا فحصنا المحسنات البلاغية المؤطرة ضمن علم البديع، فسوف نجد فوضى على مستوى ترتيب تلك

المحسنات. ويكفي أن أشير إلى محسن تجاهل العارف¹، فقد عدّه فخر الدين الرازي (ت: 606هـ) من أقسام التّظم²، وعدّه أبو القاسم السجلماسي (ت: 730هـ) من علم البيان وأساليب البديع³. فيلزم أن يُدرج محسن تجاهل العارف في علم المعاني؛ لأن المتكلم يعرف، والمخاطب يجهل، وفي ذلك إخراج للكلام غير مخرج العادة، وخرق لأفق انتظار المتلقي. ولقد أحسن أبو هلال العسكري لما فسّر تجاهل العارف بقوله: "هو إخراج ما يُعرف صحته مُخرج ما يُشك فيه"⁴. وكذلك الشأن بالنسبة لتأكيد المدح بما يشبه الذم، وعكسه، فالأنسب لهما موقعًا هو علم المعاني.

وإذا فحصنا الأوجه البلاغية المنضوية تحت إطار علم البيان، فإننا نجد بعض أقسام الاستعارة محتجزة في منطقة نفوذ علم البيان، كالاستعارة التهكمية، واستعارة حرف، فهما واردان مع أقسام الاستعارة ضمن الشروح البيانية لأبيات الشعر العربي.

فالأنسب للاستعارة التهكمية⁵ أن تنقل إلى مباحث علم المعاني؛ لأن إوالية اشتغال هذا الصنف من الاستعارة مرتكز على أساس التناقض، وخرق منطق الأشياء في المرجع

"le référent"، فهي استعارة تقلب معطيات الواقع كما تُخبر بذلك القرائن اللفظية التي ترُد ضمن التركيب، والقرائن المقامية التي يَسْتَشْفُّها المتلقي من سياق الكلام، وظروف إنجاز القول، ومقصدية المتكلم، وحال المتحدث عنه.. والشواهد الآتية تثبت صحة ما أقول، كقول الله عز

¹ -عزّه العسكري بقوله: "تجاهل العارف ومنج الشك باليقين" كتاب الصناعتين: 396.

² -يُنظر نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: من ص: 283 إلى 297.

³ -ينظر السجلماسي في المنزع البديع: 278.

⁴ -كتاب الصناعتين: 396.

⁵ -عزّفها أبو يعقوب السكاكي (ت: 626هـ) بقوله: "هي استعارة اسم أحد الضدين أو النقيضين للآخر بواسطة انتزاع شبه

التضاد، وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم أو التلميح" مفتاح العلوم: 375.

دور النسقية في بناء مصطلحية البلاغة العربية

وجلّ: (وبشّر الذين كفروا بعذاب أليم)¹. فالتهمكم هو ما يجمع بين الضدين: الإشارة المرتبطة بالخير والعذاب الأليم.

وقول شخص لصديق له وقد مرت بهما امرأة شمطاء مُحْدَوْدَبَةٌ الظهر: مرّ بنا قمر. فهناك فجوة توتر بين طرفي هذه الاستعارة.

وما قلته بشأن الاستعارة التهكمية ينطبق على استعارة حرف، فالأجدر وضعها ضمن مباحث علم المعاني. ومن شواهد ما قول الله تعالى: (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا)². فسبب التقاط آل فرعون موسى عليه السلام هو أن يكون سندا لهم، ودعامة لاستمرارية حكمهم. فاللام هي لام المفاجأة، وقد فاجأت بحق المتلقي.

إن الاستعارتين: التهكمية، واستعارة حرف تجتمعان في خاصية أخرى هي امتلاكهما بعدا تداوليا لارتباطهما الدائم بالمقامات التخاطبية، الشيء الذي يدعّم إدراجي لهما في دائرة اهتمام علم المعاني.

تأسيسا على ما سبق، تأكّدت البلبلة التي غمرت مصطلحية البيت البلاغي، مما يقتضي إعادة الترتيب، وتضافر جهود الباحثين المهتمين بالبلاغة لتحقيق ذلك الإنجاز العلمي.

استنتاجات وتقييم عام:

اتخذ البحث في التناص لدى البلاغيين العرب في البداية منحى تَفَقُّد الأصل والجوهر. فبسطت الخصومة بين القدماء والمحدثين وقضية السرقات سلطانهما على الموضوع ردحا من الزمن.

¹ - سورة التوبة: 3.

² - سورة القصص: 7.

لكن مع عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ)، ثم حازم القرطاجني (ت: 684هـ)، اتخذ البحث في التناسص منحى آخر؛ حيث صار يتغنى أهدافا جمالية وأدبية.

وأتاح لي هذا العمل النسقي عدة إمكانات أجمالها في ما يأتي:

- التمييز بين مستويين في التناسص: ظاهر صريح، ومضمّر خفي.
 - وجعل مفهوم التناسص يتجاوز البحث عن الأصل والجوهر إلى البحث عن التعدّد والاختلاف.
 - واستخلاص نسق جامع تنتظم فيه كل أقسام التناسص الأدبي ظاهرها ومضمورها، وما يمتّ بصلّة للشعر وما يتّصل بالسرد. فيغدو نسق المتعاليات النصية بنية مشتركة بين كل الأوجه التناسصية، مداره هو استشارة المعاني، وخاصيته المميزة هي طبيعته الكلية.
 - وإخضاع مفاهيم التناسص لتراتبية معينة تبعا للموقع الذي توجد فيه، والمعنى الذي تحمله.
- وتضطرنا النسقية إلى عمليات الاستبدال، والتّعميل "Factorisation"، والإلحاق وتوسيع دلالة المفهوم ليصير جامعا مانعا.
- وخلاصة القول، إن إدراج كل أوجه التناسص في المتعاليات النصية سيُفسح المجال أمام الشعرية العربية لمتابعة البحث في التنويع المميّز لأقسام التناسص، وفي وظائفه التي يُتيحها من قراءة للنص الأدبي وفهمه، وتحليله لمعرفة شاكلة انبائه، إلى إعادة البناء.

مصادر الدراسة ومراجعها: (مرتبة ترتيباً أبجدياً).

-أولاً: المصادر

- القرآن الكريم برواية حفص.
- الإتقان في علوم القرآن. السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. مصر. 1974.
- دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمد رشيد رضا. دار المعرفة. بيروت. الطبعة 2.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. تحقيق محيي الدين عبد الحميد. ط 4. 1972.
- كتاب الصنائع. أبو هلال العسكري. تحقيق محمد علي البجاوي و تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت. 1986.
- مفتاح العلوم. أبو يعقوب السكاكي. ضبط وشرح نعيم زرزور. بيروت. 1986.
- المنزعة البديع في تجنيس أساليب البديع. أبو القاسم السجلماسي. تحقيق علال الغازي. الرباط. ط 1. 1980.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء. أبو الحسن حازم القرطاجني. تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. ط 2. 1982.
- الموازنة بين أبي تمام والبحرّي. تحقيق أحمد صقر. ط 4. القاهرة. 1961.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. فخر الدين الرازي. تحقيق ودراسة بكري شيخ أمين. بيروت ط 1. 1985.

ثانيا: المراجع العربية

- بنية اللغة الشعرية. جان كوهن. ترجمة محمد الولي ومحمد العمري. دار توبقال. الدار البيضاء. 1986.
- تاريخ النقائض في الشعر العربي. أحمد الشايب. ط 3. القاهرة. 1966.
- تاريخ النقد الأدبي عند العرب. إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت. ط 3. 1981.
- تحليل الخطاب الشعري، البنية الصوتية في الشعر. محمد العمري. الدار العالمية للكتاب. الدار البيضاء. ط 1. 1990.
- دلائليات الشعر. مايكل ريفاتير. ترجمة ودراسة محمد المعتصم. منشورات كلية الآداب. الرباط. 1997.
- دينامية النص. محمد مفتاح. ط 2. الدار البيضاء. 1990.

ثالثا: المراجع غير المترجمة

- Guillen Claudio: literature as system. Essay towards the theory of literary history. Princet on university press. 1971.
- Palimpsestes. La littérature au second degré Gérard Genette : paris. Seuil: 1982.

رابعا: الدوريات

- جذور. السنة السادسة. العدد: 12. مارس. 2003.
- فكر ونقد. السنة الثانية. العدد 20. يونيو. 1999.